ذجاً

تحولت مصر على مر العقود من دولة تجمع كل الأديان الى أمة لأهل «السنة والجماعة» (خالد دسوقي ـ أ ف ب)

في 2004 اقتصر «الرقم القومي» خانة الديانة على: مسلم، مسيحي، يهودي واستبعد البهائية

المسيحيون الذين نجوا نسبياً في العهد الناصري، بدأت معاناتهم على يد أنور السادات

فلقد هيمن على الساحة الداخلية تأسلم وهابي بدعم سعودي هائل، روّجه له دعاة سلفيّون اعتمد عليهم أمن مبارك لمواجهة الإخوان. لقد نجح السلفيّون، أكثر من اللازم، في المهمة الموكلة إليهم، حتى طغى التسلّف على جماعة الإخوان نفسها. في ظاهرة شرحتها دراسة «تسلّف الإخوان» للراحل حسام تمام.
لكن «القطبية الإخوانية»، نسبة إلى سيد قطب، والسلفية الوهابية، بقيتا وجهين لعملة واحدة، ومصدراً لوعي يناهض الدولة الحديثة من حيث كونها مؤسسة مساواة بين المواطنين، ويرفض جوهر الديموقراطية بوصفها عملية تساوي المسلم والمسيحي، الرجل والمرأة، ما يناقض التراتبية الدينية التقليدية. وكان من آثار هيمنة الأفكار الأصولية الرافضة للحداثة، تفجير مزيد من الفتن، ومزيد من الاعتداءات والعداوات ضدّ «الأغيار» أياً كانوا: أقباطاً، سياحاً، أو مفكرين.
هكذا اندلعت «ثورة يناير»، في ظل احتقان طائفي مستمر، آخر مسبّباته تفجير كنيسة القديسين ليلة رأس سنة 2011. خففت الثورة مؤقتاً من الاحتقان، لكن اندفاع الإسلاميين العاصف إلى السياسة وبدئهم مبكراً معركة «الدستور الإسلامي»، واختفاء القبضة الصارمة لجهاز أمن الدولة، رفع الاحتقان إلى مستويات كبرى. أسهمت فيه حوادث، كهدم كنيسة أطفيح في آذار 2011، ثم حادثة ماسبيرو تشرين الأول 2011، التي قُتل فيها عشرات المسيحيين على يد الشرطة العسكرية أمام مبنى التلفزيون. لينغلق باب الانفتاح المسيحي الخجول على الثورة، ويندفع غالبية الأقباط إلى تأييد المرشح أحمد شفيق في الانتخابات الرئاسية ضدّ الإخوان. لكن «الفريق» يخسر؛ فيجد المسيحيون أنفسهم في مواجهة المجهول. لم يكونوا وحدهم في ذلك؛ فبعدما نصّ الدستور الجديد على عدم الاعتراف إلا بالديانات السماوية، تبخّرت آمال البهائيين في كسب معركتهم لإعادة تسجيل هويّتهم في أوراقهم الشخصية. وفوجئ النوبيون بتصريح غريب للقيادي الإخواني عصام العريان يحتفي فيه بـ«الجالية النوبية» في مصر. وصار الشيعة المصريون، وغالبيتهم من الإثني عشرية، أمام ضغوط أكبر، عمّقتها العلاقة الملتبسة بين الإخوان والحُكم الإيراني، وهي علاقة هاجمها السلفيون الى أن تراجع الإخوان عن إعادة خط القاهرة ـ طهران. وهذا يعني أن الجماعة ستبقى في إطار خط «الاعتدال» الأميركي الذي كان مبارك أحد رموزه، مع خطوة إضافية هي صداقة دولة قطر بدلاً من عداوتها.
لكن ذلك «الاعتدال» يبقى وجهاً واحداً من وجوه تتشابه فيها الجماعة مع العهد السابق. وآخرها، أنها، تماماً كمبارك، أدارت «صلحاً عرفياً» جديداً، لإنهاء أحداث الفتنة الأخيرة في منطقة الخصوص. الا أن القبلات التلفزيونية بين الشيخ والقسيس، لن تُداوي سقوط سبعة قتلى، مسلم وستة أقباط؛ ستظل دماؤهم جمراً تحت الرماد، في انتظار الفتنة التالية.

«المتهم الخفي» في الأحداث الطائفية

الإسكندرية ـ **عبد الرحمن يوسف**

عدّد كثيرون أسباب اندلاع الأحداث الطائفية في مصر، لكن ثمّة دائماً «متهم خفي» يقبع في الخلفية الذهنية لدى المصريين، لا يجري استدعاؤه إلا عند الحاجة للتمترس خلف قناعة ما تبرّر لكل طرف فعله. هذا المتهم هو «الصورة الذهنية» المرسومة عند كل طرف عن الآخر، التي لا تظهر عند التعاملات اليومية التي يغلب عليها الجري خلف «لقمة العيش». وهو أمر يشمل المسيحيين والمسلمين على السواء، وربما كان مردّها عدم وجود أنشطة كثيرة بين مسلمين ومسيحيين تجري على قاعدة مدنية، غير لقمة العيش والاشتراك في الهموم اليومية.
وعلى الرغم من ضعف الضوء المسلّط على الممارسات اليومية للقساوسة ورجال الدين المسيحيين، وابتعاد الكنائس أو إبعادها عن دائرة الضوء، فإن المتتبع للهتافات التي خرجت من بعض المسيحيين أثناء التظاهرات أمام الكاتدرائية الأسبوع الماضي وزلّات بعض الرموز الكبرى للكنيسة كالأنبا بيشوي، سيجد أن ثمة نظرة مترسخة عند المسيحيين تدور حول جملة من الأمور، أوّلها أنهم أصحاب الأرض وأن المسلمين ضيوف عليها، وأن عمرو بن العاص ما هو إلّا محتلّ. وهذا ما تجلى في هتاف «قالوا علينا بلطجية وإحنا أصحاب الأرض دية». والثانية هي أنّ المسلم غير المتديّن هو الأكثر تسامحاً، بحجة أنّ الدين الإسلامي لم ينتشر طواعية أو بسلمية.
والثالثة هي أنّ المسلمين لا همّ لهم سوى أسلمة الفتيات المسيحيات أو الزواج بهن.
لا يختلف الحال كثيراً عند المسلمين، الذين ينظر بعضهم إلى الأقباط على أنهم «بيتمسكنوا لحد ما حيتمكنوا». لذا كان الهتاف الثاني أمام الكاتدرائية «انسى القبطي بتاع زمان بكرة حنضرب في المليان»، يشير إلى فكرة لدى العديد من المسلمين مفادها أنّ الأقباط يمتلكون أسلحة في كنائسهم، أما الصورة الثانية، فهي تتعلق بأنّ المسيحيين محبون للغرب وتابعون له.

المشترك بين الطرفين هو اتهام الدولة بالانحياز إلى الطرف الآخر

ورغم أن الصور الذهنية لدى كلا الطرفين متعددة، وتمتد إلى الرائحة وطريقة الاحتفال والتعامل مع المرأة، وغيرها، إلا أنّ المرصود منها على نحو أكبر منسوب إلى المسلمين بحكم أغلبيتهم العددية التي تتيح حرية وجرأة الجهر بها، فضلاً عن أن الكنائس والمسيحيين ليسوا تحت دائرة الضوء الإعلامي على نحو مكثف، لكنّ كثيراً منها ظهر في السنوات الأخيرة، حينما قوبلت الحلقات التلفزيونية للقمّص زكريا بطرس، الموجود خارج مصر، التي كان يتهكم فيها على الإسلام باحتفاء من قبل دوائر غير رسمية قبطية، رغم تبرؤ الكنيسة منه.
الشيء المشترك بين كلا الطرفين هو اتهام الدولة بالانحياز إلى الطرف الآخر، مع الدفع بشواهد متعددة، تبدأ من الاحصاءات مروراً بالوضع الاقتصادي وعدد دور العبادة مقارنة بتعداد كل طرف في المجتمع.
ومن ثم فإنّ أي حادث بسيط ما زال قابلاً للتطور إلى فتنة طالما ظلت هذه الصورة الذهنية قابعة لدى كل طرف، حتى لو لم تظهر علانية، وظلّت حبيسة الأحاديث الجانبية، تطبيقاً للقاعدة المصرية الشهيرة «اللي في القلب في القلب».